

## صوم رمضان

## بين العلم والأدب

للاستاذ ضياء الدخيلي

- ٢ -

ويقال إن أبا تراب النخشيبي خرج من البصرة إلى مكة فوصل إليها على أكتافين أكلة بالدياح ( في معجم البلدان ذر النباح هضبة من ديار فزارة كذا جاء في كتاب الحازمي ) وأكلة بذات عرق ( قال في القاموس المحيط وذات عرق في البادية ميقات العراقيين. وفي مجمع البحرين وذات عرق أول تهامة وآخر العقيق وهو عن مكة نحواً من مرحلتين وهو الموضع الذي وقت لأهل العراق في الحج ) وقال أبو سليمان الدراني : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . قالوا وكان سهل بن عبد الله التستري إذا جاع قوى، وإذا أكل ضعف . وكان من الصوفية من يأكل كل أربعين يوماً أكلة واحدة . قالوا واشتهى أبو الخير المسقلاني السمك سنين كثيرة ثم نهيا له أكله من وجه حلال ، فلما مد يده ليأكل أصابت أصبمه شوكة من شوك السمك فقام وترك الأكل وقال يارب هذا لمن مد يده بشهوة إلى الحلال فكيف بمن مد يده بشهوة إلى الحرام ؟ وفي الكتاب العزيز ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ) فالجنة الأولى هي التقوى والثانية هي الجمادة . وقال إبراهيم بن شيان ما بت تحت سقف ولا في موضع عليه غلق أربعين سنة . وكنت أشتهى في اوقات ان اتناول شبة عدس فلم يتفق ؛ ثم حملت الى وأنا بالشام غصارة ( هي كما في المنجد القصة الكبيرة ) (فارسية) فيها عدسية فتناولت منها وخرجت فرأيت قوارير معلقة فيها شبه أعودجات فظننتها خلا ، فقال لبعض الناس أنتظر الى هذه وتظنها خلا ؟ وإنما هي خمر ، وهذه أعودجات هذه الدنان لدنان هناك، فقلت قد لزمني فرض الانكار ، فدخلت حانوت ذلك الحمار لأكسر الدنان والجرار فحملت إلى ابن طولون فامر بضرب مائتي خشبة وطرحني في السجن فبقيت مدة حتى دخل أبو عبد الله

الرباني المغربي استأذى في ذلك البلد فلم أتى بحوس فشفع في فأخرجت اليه فلما وقع بعصره على : قال أي شيء هملت ؟ فقلت شبة عدس ومائتي خشبة فقال لقد نجوت بحانا .

قال ابن أبي الحديد وأعلم ان تقليل الماء كقول لاريب في أنه نافع للنفس والاخلاق، والتجربة قد دلت عليه ، لأن أرى الكثير من الأكل يتأبه النوم والسكر والبلادة الحواس، وان كثرة الأكل تزيد الرقة وتورث القسوة والضعف . ولكن ينبغي ان يكون تقليل الغذاء إلى حد يوجب جوعاً قليلاً، فان الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسية واضطرابها واختلال قواها ، وذلك يقتضي تشويش النفس واضطراب الفكر واختلال العقل ولذلك تمرض الأخلاط السوداء لمن أفرط عليه الجوع، فأذن لا بد من اصلاح امر الغذاء بأن يكون قليل الكمية كثير الكيفية فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير الهضم عن التوجه إلى المهمة العالية الروحانية، وتؤثره كثرة كميته في تدارك الخلل الحاصل من قلة الكمية . ويحبب أن يكون الغذاء شديد الأملاء للأعضاء الرئيسية لأنها هي المهمة من أعضاء البدن، وما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء .

وأعلم أن الرياضة والجوع هي امر يحتاج اليه المزيد الذي هو يعد في طريق السلوك إلى الله، فان كان انقطاع الغذاء يسيراً وإلى حد ليس بمفرط لم يضر ذلك بالبدن كل الاضرار وكان ذلك غاية الرياضة التي أشار إليها امير المؤمنين علي (ع) بقوله ( حتى دق جليله واطف غليظه ) وإن أفرط وقع الحيف والأحجاف وعطب البدن ووقع ساحبه في الدق والذبول وذلك منهى عنه لا، قتل النفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف والسكين ، هذا ما شرح به عبد الحميد بن أبي الحديد المتزلي لكلام الأمام (ع) وقد زانته الثقافة الاسلامية في ذلك المهدى آخر حكم المباسين وقد شهد الشارح سقوط بغداد بيد التتار وكانت العلوم التي نقلت الى العربية في صدر الدولة المباسية قلما ينمت وأزدهرت عمارها في اواخرها وذلك في عهد ابن أبي الحديد ومعاصره نصير الدين الطوسي ولقد وجدت من المتعارف في العراق في رمضان ( وأظنه في باق الأقطار الإسلامية أيضا ) أن يكثر الصائمون نهاراً الأكل ليلاً فإذا وفد هذا الشهر على المدينة وفدت معه أفانين الأطعمة

قد سبها (أى غطاها) وكان أكله فاحشاً. وكان يأكل حتى يستلقى ويقول يا غلام ارفع فوالله ما شبعت ولكن ملئت. وإن هؤلاء الفرطين في الأكل خير علاج لهم الصوم الذى يطفى أجسامهم ويذيب الشحوم الزائدة ويربيع جهازهم الهضمى ولا ريب أن هذه الطائفة من الناس وطأة رمضان ثقيلة على نفسها ثقيلة على بطنها.

نقل أبو هلال العسكري في (ديوان المانى) وكان فرغ من تأليفه سنة ٣٩٥ هـ قال حدث الصولى عن أبي عبيدة قال أسلم اعرابي في أول الإسلام فأدركه شهر رمضان فجاج وعطش فقال الأعرابي يذكر ذلك :

وجدنا ديتكم سهلاً علينا شرائمه سوى شهر الصيام

وقال ابن قتيبة الدينورى في (عيون الأخبار) قدم اعرابي

ابن عم له في الحضر فأدركه شهر رمضان فقبل له يا أبا عمرو لقد أتاك شهر رمضان قال وما شهر رمضان قالوا الأماك عن الطعام قال أيا ليل أم بالهار قالوا لا بل يانهار قال أفيرضون بدلا من الشهر قالوا لا قال فان لم أصم فعلوا ماذا؟ قالوا تضرب ونحبس فسام أياماً فلم يصبر فارتحل عنهم وجعل يقول :

فارتحل عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم تهباً أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى سلام عليكم فاذهبوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر على ولا مناع أكل طعام

وقول ابن قتيبة الدينورى في هذه الحكاية (أنه ان لم يصم

ضرب وحبس) يناق ما نقله الشيخ نعمان الألوسى في (غاية المواقظ)

في أنه ذكر في (البرازية) أن من أكل في شهر رمضان متممداً

يؤمر بقتله، لأن ستمه الفاحش دليل الاستحلال وأن الصوم من

الأمر المعلومة من الدين بالضرورة ولذلك يكفر جاحد .. وقيل لأعرابي أدركك رمضان فقال لأقطمته بالأنطار وأدرك أعرابياً

شهر رمضان فلم يصم فمذلته امرأته في الصوم فزجرها وانشأ يقول

وأواعها ونمذت المطايخ في تنويع الأكلات حتى انقلب شهر الصوم والجوع إلى فترة لهم ونخمة وقد سألت مرة أستاذى في (الكيمياء الحيوية) في كلية الطب العراقية (الستر هو كثر) عن رأيه في الصوم فأتى عليه من الوجهة الصحية والتهديبية غير أنه انتقد المسلمين لأفراطهم في الأكل ليلاً بما يتمب الجهاز الهضمى. ولا ريب أنه مصيب فإن للأمعاء قابلية محدودة في استيعاب الأقدية

بموت تتاح امصاراتها الهضمية فرصة التأثير على مكونات الغذاء من زلايات ودهنيات ونشويات وغير ذلك وفي حالة الإفراط المتعارف ليلاً عند الصائمين يتمب الأمعاء وتمتلىء للنهابة ولا تعود التغذية الهضمية قادرة على تزويد قطع الغذاء وأجزائه بما يحمله

كبايوياً من الخمار الهضمية وتتمب المعدة وتتوسم ولا شك أن ذلك يؤدى إلى أن يتتاب المرض ذلك البطن الجشم التهم والله در

الأمام على رع) إذ قال (كم من أكلة تمنع أكلات) لقد أخذ هذا المعنى بلفظه ابن الحريرى فقال في المقامات (يا زب أكلة

هاضت الآكل ومنعته مآكل) وأخذ ابن العلاف الشاعر فقال في سنوره يرثيه

أردت أن تأكل الفراخ ولا يأكلك الدهر اكل مضطهد

يا من لذيد الفراخ أرقمه ويحك هلا قنعت بالقدد

كم أكلة خامرت حشاشره فأخرجت روحه من الجسد

والقدد جمع القدة وهي السير يقعد من الجلد والقلمة من الشيء وتطبق أبيات ابن العلاف هذه ليس على السنور فقط بل

على (بعض الشيوخ) الذين يجردون في رمضان ميداناً قسيحاً

للفتك بفراخ الدجاج في الولائم الرمضانية .. وفي المثل (أكلة

أبي خارجة) قال اعرابي وهو يدعو الله بباب الكمية اللهم ميتة

كيتة (أبي خارجة) فسأله فقال أكل بدجاً وهو الحجل وشرب

وطبا من اللبن (والوطب هو سقاء اللبن) وروى من النبيذ وهو كالحوض من جلود يذب فيه (نبيذ النبيذ عمله) ونام في الشمس

فات فلق الله شيمان ريان دفيثا. والمرب تميز بكثرة الأكل ونعيب بالجنح والشره والنهم وقد كان فيها قوم موصوفون بكثرة الأكل منهم معاوية بن أبي سفيان قال أبو الحسن الدائنى في كتاب (الأكلة) كان معاوية يأكل في اليوم أربع أكلات أخراهن عظمها ثم يتمشى بعدها برودة عليها يصل كثير ودهن

ذو الجسم القوي بالارتياح عند قيامه بتمرين شاق من الألعاب الرياضية ونجاحه فيه .. وكل مجهود يبذل في مقاومة هوى أو وقع شهوة ثم يؤول الى التغلب عليها يكسب الأرادة قوة . ولا ريب أن الصوم من اجلي مظاهر هذا المراك مع النفس الأمانة بالسوء فاذا استطاع المرء أن يقودها الى النهاية شعر بتغلبه على أهوائها وقدرته على الرضوخ والتأثر على الأعمال الشاقة حتى نهايتها . وهناك ناحية اخرى في الصوم يرأها طائفة من الفلاسفة والصوفية الذين يجدون لذة في ارهاق النفس وتمذيبها وحرمانها ويرون مع يوسف بن اسباط انه ( لا يحجر الشهوات من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مغلق ) فهم يريدون ان يخيفوا القلب بعذاب جهنم اللواعة بالشرر فيدروا أو مرضه باحباره على الصوم ويقفلوا من الشهوات البارمة التي فيها البلاء والدمار . وهم يرون ان الاسترسال في اللذات والشهوات جريرة لا تغفر؛ فملى المرء أن يقمعها ويلجم النفس بالصوم عنها ان هؤلاء الصوفية يجدون الفضيلة في حرمان النفس مما تشتهي وصدم رغباتها واهوائها .

روى ابن ابى الحديد أن ابراهيم الخواص قال : كنت في جبل فرأيت رمانا فاشتهيته فدنوت منه فاخذت واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فضيت وتركزت الرمان ، فرأيت رجلا مطروحاً قد اجتمع عليه الزنايبر فسلمت عليه فرد على باسمي : فقلت كيف عرفتنى؟ قال من عرف الله لم يخف عليه شيء : فقلت أرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يحميك ويقيك من اذى هذه الزنايبير . فقال وأرى لك حالاً مع الله فلو سألته ان يقيك ويحميك الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان أله في الآخرة؛ ولدغ الزنايبير يجد الانسان أله في الدنيا: فتركته ومضيت على وجهي) ونحن نرى أن الفكرة التي تحكيها هذه القصة بعيدة عن روح الإسلام وهي اشبه بميادة البراهمة من المنسود وتمذيبهم نفوسهم منها بروح التعاليم الإسلامية . ولا ريب أن الإسلام تأثر كثيراً بعبادات الأمم التي دخلته - وعلى كل حال فان الناس نجاة لذات الحياة أصناف ، فهم من دعا الى الزهد ، وقع الشهوات : قال الماوردي في (أدب الدنيا والدين) (ان شهوات النفس غير متناهية ، فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تمدتها الى شهوات استحدثتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي ومن كان

المسلمين إلى صرامة تأديبه حتى يقوم معوجهم غازياً ضدهم النفس يتهاويل عقوباته الاخرية في جهنم الطافحة بالويل والثبور الكشيرة الاغشى الجبارة والمقارب المرعبة وفيها القيود الملمومة والمقاع من النار ، هذا مضافاً إلى غضب جبار السماوات كل هذه العقوبات الخيفة واقفة بالمرصاد لمن يفطر شهر رمضان متممداً الفسق والفجور مضافاً ذلك إلى عقوبة السلطة الدينية فيسوق الإسلام الخير لهذه النفوس الضميعة ويلجمها عن الطعام فترة من الزمن فيصلح من ابدانها بالصف والجبر ويلزمها الأقتصاد والتقليل من امراءها في الأكل المتب لجهازها المضى ، فكأن رمضان علاج كربه العلم ، ودواء صر الذائق ، تساق اليه النفوس الريضة سواقاً؛ وكان بالإسلام قد خص شهر رمضان بالصوم لترويض النفس والتغلب على رغباتها الأمانة بالسوء فهو بمثابة تدريب عسكري يشترك في القيام به افواج المسلمين في فترة معينة من الزمن أو عمارين رياضية لتقوية النفس وتقويم الروح وتهذيب الاخلاق

وللصوم فائده الكبرى في علاج ضعف الأرادة في اولئك الذين لا يستطيعون ان يقاوموا أهوائهم وشهواتهم فهم مستسلمون لها راضخون لأحكامها تجرد الفرد من اولئك يدفه استرساله في سيره خلف شهواته السادرة في يبداء الضلال - فركب أسوأ الكبار فاندفع الى شرب الخمر وانجر الى المقامرة بعد ان زلت بقدمه المربيات لأول وهلة فاصبح كالذي فاصت قدماء في حاة من النار مكبلته وعاقته عن السير ولم يستطع أن يتخلص من شرها . وكثيراً ما كان على علم بسوء مغبة ما هو فيه ولكنه لا يستطيع ان يقاوم لضعف في إرادته ووهن في عزيمته؛ ولربما رأى الخير في شيء ورأى وجوب عمله ، ولكن خائته إرادته فاستسلم وقد كبله الكسل وقعد به الضعف وسيطر عليه الخمول فحاول الإسلام وهو دين الإصلاح وال عمران - أن يسالج ضعف الإرادة بالارادة كما يتقوى الجسم بالرياضة البدنية والعقل بالبحث العميق الدقيق، فبالزام النفس المسلمة بالصوم لدى يتطلب مشقة وجهداً تقوى الإرادة وتعود ان تغلب على المساعب والمغبات وتشمس النفس بالارتياح في مغالبة الصماب وخضد شوكة الرغبات الجاهحة والتغلب عليها كما يشعر

كاستخاء فانه وسط بين البخل والتبذير ... وبمد فقد أُرط الأرحض  
 وبالعجماء من الزهاد فلم يكتبهم بمضمع الشموات بل تداها إلى  
 تمذيب النفس بالقيام بالشمس في أشد ساعات الحر والترصع على  
 الرخام في الشتاء وغير ذلك من أساليب عتيفة نسمع بها كثيراً  
 عن عبادات المنود الشاذة المبنية على هذه الفلسفة الخاطئة الباطلة  
 ويمتدح بعض هؤلاء أنهم بتعذيب النفس الصارم القاسي ترتفع  
 نفوسهم وتعلو إلى درجات عالية في الرفق والقدسية وتمتدح لها  
 ابواب الأطلاع والارتقاء عن مستوى البشر، إلى غير ذلك من  
 الاعتقادات الفاسدة والمذاهب الباطلة. ويسمى هؤلاء أسلافهم هذا  
 في ادراك المعرفة بطريقة الاثراق ويسمون انفسهم الأثراقيين  
 كما ذكره لنا أستاذنا في الفلسفة الإسلامية في النجف الأشرف  
 (البنجردي) عند دراستنا عليه شرح منظومة السيزواري في  
 الفلسفة. ويرى الدكتور أحمد أمين في كتاب (الأخلاق) ان هذا  
 مذهب أكثر المعتنقين له من الناقين على الحياة المتشاعين من كل  
 شيء في الوجود المصابين بفقر الدم الذين ضاعت شهواتهم لضعف  
 أجسامهم. وقد يرى هذا الرأي أيضاً من قويت صحته وكل جسمه  
 واشتدت شهواته ولكن كانت إرادته أشد وسلطانه على نفسه  
 أقوى وأقوى ما يكون ذلك إذا أتى من ناحية الدين ... والتزاهد  
 في الحقيقة ليس يرفض اللذة لأنها لذة لي هو يرفضها لأنه أخرى  
 أكبر منها في نظره. هذا ما يقوله (خليفة بن خلدون) ويؤيده  
 ما رأيت في شرح النهج لابن أبي الحديد المتزلي من قول الخواص  
 (من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها) ...  
 ومن الزهاد من يرفض ان ينعم بالأكل الشهوي ونحوه لأنه  
 يرى ان الاستمرار في طلب اللذائذ بسبب الآلام إذ تصبح النفس  
 شرهة، اطامها كثيرة، وآلامها واسمة، وكلما نالت منها الكثير  
 طمعت فيها هو أكثر منه، ثم هي تتألم الآلام الشديدة لما حرمت  
 وتشجع مع ما نال فصصاً من الآلام. اضف الى ذلك ان كثرة  
 التمتع باللذة يفقدها قيمتها ويذهب برونقها وجمالها. ويرى هؤلاء  
 ان شعور الانسان بأنه قادر على حرمان نفسه برفقه فوق حوادث  
 الزمان فلا تصبح لها القدرة على اخضاعه، وهذا الشعور يحرره من  
 ربة الخوف وهو شعور فيه من اللذة ما ليس في اللذات الجسمية:

الكلام بنية نصيبه الرفيلى

بهذا الحال لا ربح له سلاح) وأن طائفة من المتشعنين كما  
 يقص علينا الدكتور أحمد أمين في (الأخلاق) ترى ان ارق أنواع  
 الحياة الاخلاقية ما حوربت فيها الشهوات، وهؤلاء لا يتزوجون  
 مثلاً ولا يأكلون اللحوم ويمتزلون الناس جهدم ولا يمكنون  
 النفس من ماء كز انيق أو مقعد وثير أو ملبس جميل  
 وقد شنع (سنيكا) وهو من الفلاسفة أتباع الرواقين وكان  
 في صدر الدولة الرومانية (٦٦م - ١٥م) لقد شنع هذا الفيلسوف  
 على من يشرب الماء مثلجاً في أيام الحر: وقال قد انتزع الترف من  
 القلوب ما كان من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت  
 أشد برداً وقسراً من الثلج والجليد، فكأن هذا الفيلسوف يوصى  
 بشمود جشوبة لبس وكأنه يرمق في حديثه كلمة النبي (ص)  
 المأثورة (اختر شئوا فان الترف يزيل النعم) ولكنه أُرط وشط  
 عن الطريق السرى. اما كلمة النبي (ص) فقد جاءت جامعة مانمة  
 فيها عظة وتهدير وفيها تلويح الى ما حدثنا به التاريخ من انقراض  
 امم هلكت لانقراضها في الترف كما وردت الآثار عن مصرع  
 الأباطورية الرومانية واضمحلالها بداء الترف.  
 ومالك تذهب بعيداً حسبك ان ترجع الى تاريخنا العربي فان  
 الأمة الإسلامية عندما حدثت عن تطالم الإسلام وانضمرت في  
 الترف وفساد الحياة الحضرية ذهبت منها صفات الرجولة ومعالم  
 البطولة وماعت أخلاق بنيتها قامت عليها الأمم التي عنت من قبل  
 لسلطوتها فاستمدتها. لقد انقمر آباؤنا في نعيم البلاد التي انتحوها  
 ونسوا وصية النبي (ص) بلبس جلد النمر لحوادث الدهر وكوارث  
 الزمن وانغمروا في الترف فحق عليهم ما حذرهم منه المقتد الأعظم  
 (ص) فانقرضوا ونزعت دولهم وذهبت رحمتهم وعادوا عبيداً بمد  
 أن سادوا بالإسلام شرق الأرض وغربها. ولا ريب ان في الصوم  
 مظهراً من مظاهر الاختيشان وفيه فتوة تطبع النفوس على غرار  
 الرجولة والبطولة وتشربها القوة والصبر والجلد. ولنمد الى حديث  
 مذهب اولئك الفلاسفة الذين أغرقوا في تمشق جشابة العيش  
 وخشونة الحياة وقد قال ارسلوا العلم الأول: الفضيلة وسط  
 بين رزيلتين: الانراط والتفريط. وفي الحديث الشريف خير الأمور  
 أوسطها وفي الكتاب العزيز خطاباً للمسلمين (جعلناكم أمة  
 وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) قال بعض اعلام الإسلام - كما  
 في مجمع البحرين للطريحي - كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان